



شرح كتاب الفصول في سيرة الرسول

لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري رحمه الله

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٥/٢٣ هـ

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

سنشرع بإذن الله ﷻ في دراسة سيرة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وهي - في الحقيقة - دراسة لأزكى وأعطر سيرة ؛ فهي دراسة لسيرة سيد ولد آدم أجمعين وخير الناس كلهم صلوات الله وسلامه عليه ، وهي دراسة لسيرة أعلم خلق الله بالله ، وأتقى خلق الله لله ، وأعظمهم تحقيقاً للعبودية لله ، وأكثرهم خشية لله ﷻ .

ودراسة السيرة هي غذاء للقلوب ، وفاكهة للنفوس ، وسعادة ولذة وقرة عين ، بل إنها جزء من دين الله ﷻ ؛ لأن حياة نبينا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - حياة بذل وعطاء وصبر ومصابرة وجد واجتهاد ودأب في تحقيق العبودية لله تبارك وتعالى والدعوة إلى دينه ﷻ ، وفي دراسة السيرة فوائد عظيمة جداً ومنافع متعددة لعل من الحسن والمناسب أن أذكر بها ليكون فيها شحذٌ للهمم للصبر والمواصلة والعناية بدراسة سيرة نبينا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ؛ فمن فوائد دراسة السيرة :

- أن نبينا ﷺ أسوة للعالمين وقدوة لهم ؛ في العقيدة والعبادة والأخلاق كما قال الله ﷻ : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] ، وتحقيق الاتساع به وسلوك هديه ﷺ متوقف على معرفة سيرته وهديه الكريم عليه الصلاة والسلام .

■ الأمر الثاني : أن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وهدية القويم يُعَدُّ ميزانا توزن في ضوءه الأعمال ؛ فما كان منها موافقاً لهديه وسلوكه عليه الصلاة والسلام فهو المقبول ، وما كان منها ليس موافقاً لهديه عليه الصلاة والسلام ولسلوكه فهو المردود . وفي هذا المعنى يقول سفيان ابن عيينة رحمه الله تعالى فيما روى الخطيب البغدادي في مقدمة كتابه العظيم "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الميزان الأكبر ؛ فعليه تعرض الأشياء ، على خلقه وسيرته وهديه ، فما وافقها فهو الحق ، وما خالفها فهو الباطل » .

■ الأمر الثالث : في دراسة سيرة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام عون على فهم كتاب الله ﷻ ، لأن حياته عليه الصلاة والسلام كلها تطبيق للقرآن وعمل به ، ولما سُئِلَتْ أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- عن خلقه عليه الصلاة والسلام قالت : ((كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)) ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] والمراد بالخلق هنا : الدين ؛ أي على دين كامل وتام ، فهو عليه الصلاة والسلام قد قام أتم قيام بأوامر القرآن فعلاً لها ، ونواهي القرآن اجتناباً وتركاً ، وآداب القرآن والأخلاق التي ذُكِرَتْ فيه عملاً وتطبيقاً ؛ فحياته عليه الصلاة والسلام وسيرته عملٌ تام وتطبيق كامل لكتاب الله تبارك وتعالى ، فمن خلال دراسة السيرة يكون في ذلك عون للمسلم على فهم كتاب الله ﷻ ، وعندما تطالع كتب التفسير ولاسيما أسباب النزول تجد الارتباط بين آيات القرآن الكريم ونزولها بحسب أحداث السيرة ووقائعها ؛ مما يتبين به الحاجة لدراسة سيرة النبي ﷺ في فقه كتاب الله جل وعلا .

■ الأمر الرابع : أن في دراسة سيرته عليه الصلاة والسلام تعميق لمحبهه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ)) وفي رواية ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) ، وجاء في صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : " قلت يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي " ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ)) فقال له عمر: " فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي " فقال النبي ﷺ : ((الآنَ يَا عُمَرُ)) . فتعميق هذه المحبة وتمكينها

وتقويتها في القلب يحتاج من العبد إلى دراسة لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام ومعرفة بأخباره العطرة وحياته المباركة صلوات الله وسلامه عليه ، وقراءة السيرة تزيد قلب القارئ حباً للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وقد كان في حياته عليه الصلاة والسلام يأتي إليه الرجل وليس على وجه الأرض أبغض إليه منه ؛ فما أن يراه ويرى سيرته وهديه وسلوكه إلا ويتحول من ساعته وليس على وجه الأرض أحب إليه منه !! فهي سيرة عامرة بالرحمة ، بالرفق ، بطيب المعاملة ، بحسن الأدب والخلق ، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وإذا أكرم الله ﷺ عبده بمحبة نبيه عليه الصلاة والسلام محبة صادقة ساقته هذه المحبة إلى كل فضيلة ، وكانت عوناً له على تحقيق الإتياع لهذا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ومنهاجه القويم ؛ كما كان الصحابة رضي الله عنهم يتبعهم بإحسان .

■ الأمر الخامس من فوائد دراسة سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام : أن دراسة السيرة باب من أبواب زيادة الإيمان وتقويته ، وقد قال الله تعالى : ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] ؛ فمعرفة الرسول عليه الصلاة والسلام ومعرفة هديه وآدابه وأخلاقه موجبة لمن حصلت له هذه المعرفة للإيمان إذا كان لم يؤمن ، وموجبة لزيادة الإيمان في حق المؤمن . وكم من أقوام دخلوا في دين الله ﷺ من خلال وقوفهم على سيرة النبي الكريم وآدابه الكاملة وأخلاقه الفاضلة ومعاملاته العظيمة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

■ الأمر السادس : في دراسة السيرة عون لفهم الدين كله ؛ عقيدة وعبادة وخلقا ، لأن حياته - كما أسلفت - حياة عمل لهذا الدين ؛ قياماً به ودعوة إليه وتوضيحية وجد واجتهاد وجهاد لنصرة هذه العقيدة التي هي رأس الأمر وأساس دين الله تبارك وتعالى ، ومن يطالع سيرته عليه الصلاة والسلام يجد أنه أول ما بدأ في دعوته بدأ بالدعوة إلى العقيدة والتوحيد ، ومضى على ذلك سنوات عديدة من حياته لا يدعو إلا للعقيدة والتوحيد كما أمره الله ﷺ بذلك ، ثم بعد ذلك جاءت الفرائض والأوامر شيئاً فشيئاً ؛

ففي دراسة السيرة دراسة للعقيدة ، ودراسة لمراحل التشريع ، ودراسة لنزول الفرائض والعبادات ، ومعرفة بالتطبيق العملي لدين الله تبارك وتعالى عقيدةً وعبادةً وحُلُقًا .

■ الأمر السابع : أن السيرة فيها تعليم للنهج الصحيح في الدعوة إلى الله ، والدعاة إلى الله ﷺ حقاً هم أهل الدراية بهديه ونهجه وسيرته ﷺ ، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨] فالدعوة إلى الله جل وعلا على بصيرة لا بد فيها من معرفة هديه ونهجه صلوات الله وسلامه عليه في الدعوة إلى الله ﷻ ، والسيرة النبوية مشتملة على بيان هديه عليه الصلاة والسلام في الدعوة من حيث بدأ عليه الصلاة والسلام ، من حيث طريقته وأسلوبه ﷺ في الدعوة إلى الله ﷻ ، من حيث أخلاقه وآدابه وتعاملاته ولين جانبه ورفقه ﷺ ، إلى غير ذلك من الأمور التي هي مقومات للدعوة إلى الله تبارك وتعالى .

■ الأمر الثامن : أن سيرة النبي ﷺ نفسها آية من آيات نبوته ، وعلمٌ من أعلام صدق ما جاء به عليه الصلاة والسلام ، وهي أكبر عونٍ على تصديقه والإيمان به ﷺ ، فطريقة معرفة صدق الرسول ﷺ وصدق ما جاء به تكون من خلال أمور منها : معرفة سيرته ، وإلى ماذا يدعو ، وكيف تكون معاملته للناس ، وما هو هديه ، وما هي أخلاقه ، وما هي تعاملاته ؛ ومن يطالع السيرة يجد حياةً عطرة ، حياةً عامرة بالخير والعطاء والخلق والأدب والكرم والسخاء ، إلى غير ذلك من الصفات الفاضلة والآداب الكاملة ، ولقد شهد كثيرٌ من أعدائه ﷺ بصدقه لكمال سيرته عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعث وبعد بعثه ﷺ .

■ الأمر التاسع : أن دراسة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام باب عظيم مبارك من أبواب السعادة ؛ بل إن السعادة متوقفة على معرفة هدي النبي ﷺ ، فلا سعادة إلا بسلوك نهجه ولزوم هديه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . يقول ابن القيم -رحمه الله- في كتابه زاد المعاد في هدي خير العباد : "ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل - إلى أن قال - وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي ﷺ ، فيجب على كل من نصح نفسه

وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه مَا يَخْرُجُ به عن الجاهلين به ويدخل به في عِدَاد أتباعه وشيعته وحزبه ، والناس في هذا بين مستقِل ، ومستكثر ، ومحروم ، والفضل بيد الله يُؤْتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم " .

ثم من ينظر إلى واقع الناس من حيث العناية بسيرة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام يجد أن حالهم كما ذكر ابن القيم رحمه الله بين مقل ومستكثر ومحروم ؛ بل إنهم في هذا الباب :

❖ إما رجل ابتلي بالجفاء في حق إمام الخلق وقدوة الناس أجمعين ؛ فتجد أيامه تمضي وحياته وأوقاته تمر ولا يعطرها ولا يطيبها بدراسة هدي وسيرة خير العباد التي هي زاد يبلغ إلى رضوان الله ، وإلى هذا يلح ابن القيم رحمه الله في عنوان كتابه ؛ قال: " زاد المعاد في معرفة هدي خير العباد " ، لأن هذه المعرفة زاد للمعاد .

❖ وقسم آخر أصيب في هذا الباب بغلو وتجاوز للحد ، وأصبحت السيرة والعناية بهدي النبي ﷺ عنده نوع من المغالاة والإطراء المنهي عنه ، وإحداث البدع التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، وإحداث المواسم التي تخصص في أوقات من السنة لقراءة القصائد أو المدائح أو أحيانا لقراءة شيء من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ مع تقصير بيّن وتفريط واضح في إتباع هديه ولزوم نهجه ﷺ ، حتى إن بعضهم ليضيع الفرائض المكتوبات وفي مقدمتها الصلوات الخمس ولا يضيع ولا يفوت تلك البدع المحدثات .

❖ وقسم - وهم خيار الناس - وسط في هذا الباب : لا غلو ولا جفاء ولا إفراط ولا تفريط .

وينبغي أن يُعلم أن دراسة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ليست متوقفة على قراءة الكتب المؤلفة بهذا العنوان "سيرة النبي ﷺ" ، لكن هذه الكتب رتبها أهل العلم وهذبوها واعتنوا بها تقريبا ، لكن عندما تدرس مثلاً صحيح البخاري وصحيح مسلم والكتب الستة وغيرها من كتب الحديث ؛ فهذه في الحقيقة دراسة لهديه ودراسة لحياته وسيرته ودعوته صلوات الله وسلامه عليه . وهكذا كتب التفسير كل ذلك مصادر لتلقي السيرة النبوية ؛ ولهذا كلما كان الإنسان مع القرآن والحديث عناية بهما ومحافظة عليهما علماً وعملاً وتطبيقاً فهو على خير

عظيم في باب دراسة سيرة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، لكن هذه الكتب التي كتبها أهل العلم مختصرة ومطوّلة تقرّب الفائدة وترتب الموضوع بترتيب حياته عليه الصلاة والسلام بدءاً من ولادته فنشأته فبعثه عليه الصلاة والسلام وهجرته إلى غير ذلك من أحداث السيرة العظيمة المباركة .

ونبدأ بإذن الله تبارك وتعالى في دراسة كتاب " الفصول في سيرة الرسول " للإمام ابن كثير رحمه الله ، وأوصي نفسي وإخواني بين يدي هذه الدراسة بأمرين :

الأمر الأول : تصحيح النية ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)) ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) : أي معتبرة بنياتها . وطلب العلم ومنه دراسة السيرة عبادة وقربة من القرب التي يتقرب بها إلى الله ﷻ ؛ فيحتاج إلى نية صالحة بأن ينوي في طلبه للعلم بدراسته للسيرة التقرب إلى الله ﷻ ويعدها من جملة قُربه التي يتقرب بها إلى الله ﷻ لتدخل هذه الدراسة في صالح عمله ، أما إذا لم تكن هناك نية صالحة وقصد بالعمل للتقرب إلى الله ﷻ لا يدخل في صالح عمل الإنسان ولو أمضى حياته في دراسة السيرة !! فالأعمال معتبرة بنياتها .

الأمر الثاني : أن يجعل من غرضه في دراسة السيرة تحقيق الفوائد التي مرت معنا ، وأن يكون للإنسان همة في العمل والتطبيق والاهتداء بهدي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه